الملك عبدالعزيز
خلال الحرب العالمية الأولى

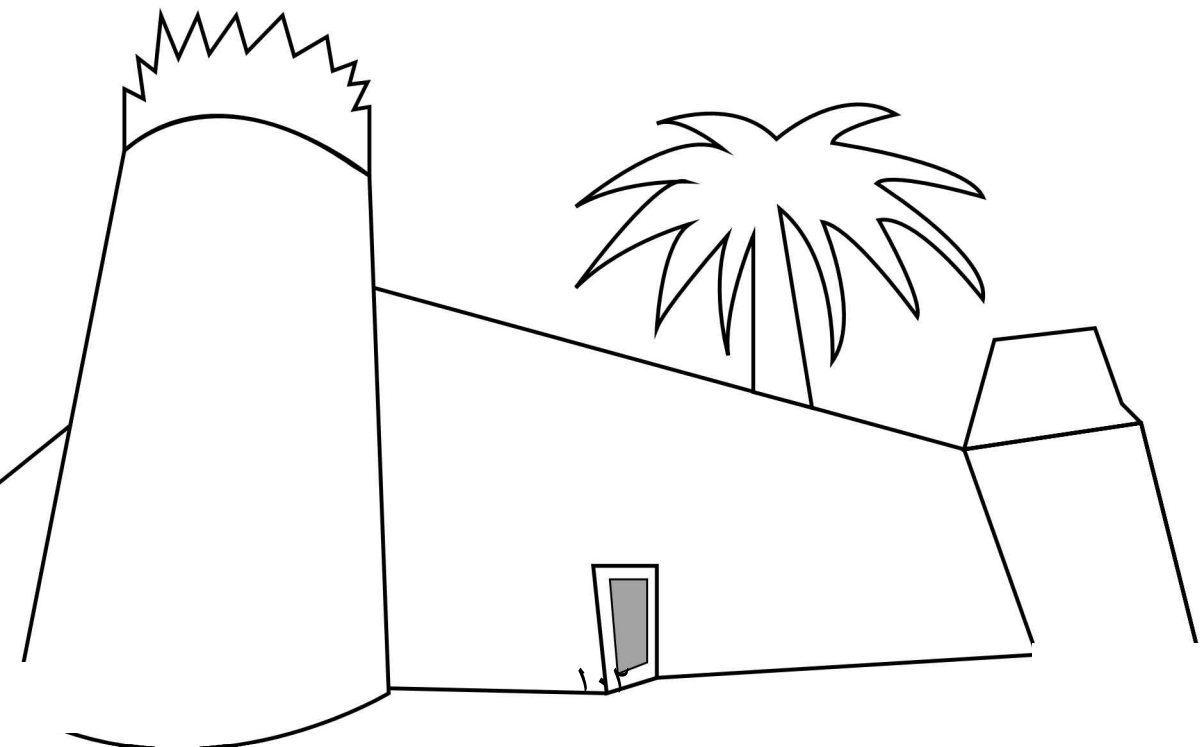

بدأت الحرب العالمية الأولى عام ١٣٣٢هـ، وانتهت عام ١٣٣٧هـ/١٩١٤-١٩١٩م. وقد مرَّت خلالها أوضاع الملك عبدالعزيز داخليًّا وخارجيًّا بحوادث مُهمَّة.

١-علاقته بأمراء جبل شَمَّر:

كان لدى سعود الصالح بن سَبْهان طموح إلى تَولِّي مكانة قريبه زامل بن سَبْهان في الإمارة، فأوغر صدر الأمير سعود بن رشيد على ذلك القريب، ثم قام باغتياله سنة ١٣٣٢هـ، واحتلَّ مكانته[١]. ولقد كان زامل ذا رأي راجح، فاختار مهادنة الملك عبدالعزيز فترة. لكن سعودًا لم يكن مثله؛ بل رمى بثقل الإمارة مع الدولة العثمانية، فأمدَّته بالمال والسلاح. أما الملك عبدالعزيز فَفضَّل أن ينتهج سياسة حيادية نوعًا ما بين هذه الدولة وخصومها حينذاك[٢]. وتَوتَّرت العلاقات بينه وبين قادة جبل شَمَّر، وأهذ كل منهما يستعد لمجابهة الآخر، حتى وقعت بينهما معركة جُراب.

استنفر الملك عبدالعزيز من استطاع من أتباعه؛ حاضرة وبادية، وسار بهم حتى وصل إلى جُراب؛ وهو موضع قريب من بلدة الزُّلفي. أما ابن رشيد فجمع قواته ومن استجاب له من قبيلة شَمَّر، ونزل بهم حول قُبة[٣]. وشَدَّ الملك من جُراب متجهًا صوبه، لكنه ما إن سار قليلًا حتى فوجئ بخصمه أمامه مستعدًّا لقتاله. وسرعان ما بدأت المعركة بينهما؛ وذلك في اليوم الثامن من ربيع الأول عام ١٣٣٣هـ/١٩١٥/١/٢٣م. وقد حدث أن كان الملك عبدالعزيز وأتباعه

---

(١) القاضي، ص٤٣؛ الذكير، نسخة خاصة، ص١٠٥؛ موزل، ص٢٤٨.

(٢) الريحاني، ص٢٢٠.

(٣) تقع شرق الأسياح. وقد أصبحت فيما بعد مقرًّا لعبدالمحسن الفرم من حرب، وتطوَّرت مثل كثير من البلدان النجدية الحديثة.

من أقاليم جنوبي نجد قبالة ابن رشيد وأهل لُبْدة وفئات من شمَّر. فرجحت كفة الملك عبدالعزيز ومن معه على كفة من أمامهم، وتقهقروا. أما أتباع الملك عبدالعزيز من أهل القصيم فكان أمامهم أهل القصر وأهل مغيضة وفئات من شَمَّر. وقد تَغلَّب هؤلاء على أولئك الأتباع، فانهزموا. ولما رأى الملك ومن معه ما حَلَّ بهذا الفريق من أتباعه حَلَّت بهم الهزيمة أيضًا[١].

وكانت فئات من شَمَّر قد أغارت على إبل الملك عبدالعزيز في أثناء القتال، وأخذت منها ما استطاعت أخذه. لكن الأكثر إيلامًا أن فئات من البادية التي كانت معه -وفي مقدمتها العُجْمان- أخذوا ما استطاعوا أخذه من تلك الإبل، ومضوا بها. وكانت قبيلة مُطَير المتحالفة معه لم تصل إلى ميدان المعركة إلا وقد بانت نتائجها، فانتهزت الفرصة بالإغارة على إبل ابن رشيد، والاستيلاء على أعداد كبيرة منها[٢]. وقد قُتِل من أتباع الملك عبدالعزيز عدد من المشاهير بينهم محمد بن جلوي، ومحمد بن شريدة[٣]، وصالح الزامل أمير غزو أهل عُنَيزة[٤]. وكان من بين القتلى الضابط البريطاني شكسبير، الذي كان قد أتى إلى نجد للتفاوض مع الملك عبدالعزيز، وأَصرَّ على حضور المعركة[٥].

وبعد تلك المعركة وصل الملك عبدالعزيز إلى الأرطاوية، حيث التحق به بعض أتباعه، ثم انطلق من هناك إلى بُرَيدة[٦]. أما ابن رشيد فوصل إلى قُبَة. وهناك وردت إليه أخبار بأن خصمه قد قُتِل، فانتقل من موضعه إلى الأسياح

(١) القاضي، ص٤٧؛ الذكير، نسخة خاصة، ص١٠٧؛ موزل، ص٢٤٩.

(٢) القاضي، ص ص ٤٧ - ٤٨؛ الذكير، نسخة خاصة، ص١٠٧.

(٣) ابن هذلول، ص١٠٥.

(٤) القاضي، ص٤٨.

(٥) الريحاني، ص٢٢٢. ويذكر موزل (ص٢٤٩) أن الذي قتله إبراهيم النودلي.

(٦) عندما وصل إلى بريدة وصل إليها مندوبه صالح بن عذل قادمًا من المدينة المنورة ومعه عشرة آلاف ليرة من العثمانيين محاولين استقطابه، فاستفاد بها في تجهيز أتباعه. الذكير، نسخة خاصة، ص١٠٧.

آملًا الاستيلاء على القصيم. لكن ما إن علم بوصول الملك عبدالعزيز إلى بُرَيدة والتحاق أتباعه به حتى رحل من الأسياح مُتَّجهًا شمالًا. وبعد محاولة غير ناجحة لضرب فئات من مطير عاد إلى حائل. أما الملك عبدالعزيز فتَوجَّه ببعض أتباعه شمالًا حتى وصل إلى الكهفة، ثم عاد إلى الرياض. وفي شهر رجب تصالح الطرفان[1]، لكن صلحهما لم يستمر إلا شهرًا وأيامًا. ذلك أن هزيمة الملك عبدالعزيز أمام العُجْمان في كنزان أغرت ابن رشيد بنقض الصلح ومحاولة التوسع على حسابه. فأغار على شرقي القصيم، وأخذ إبلًا وغنمًا لأهل بُرَيدة الذين كانوا يعتقدون أنه متمسك بالصلح. ثم نزل الطرفية في منتصف رمضان، وأرسل رسالتين: إحداهما إلى أمير عُنَيزة، والأخرى إلى زعماء بريدة[2]. يطلب من الجميع أن يَنضمُّوا إليه مشيرًا إلى أنه مُتأكِّد من مقتل الملك عبدالعزيز. لكن هؤلاء رفضوا طلبه، ولاموه على نقض العهد، وحَذَّروه من مَغبَّة ذلك[3].

ولكون ابن رشيد نازلًا قرب بُرَيدة طلب أهلها من أمير عُنَيزة نجدة ترابط لديهم وتساعدهم في الدفاع عن بلدتهم، فبعث إليهم ذلك الأمير ١٢٠ رجلًا بقيادة ابن أخيه عبدالله الخالد. وقد هاجم ابن رشيد خَبَّ القبر، لكن خصومه من أهل القصيم فَوَّتوا عليه فرصة نيل مآربه، فعاد إلى معسكره في الطرفية. وبينما هو في ذلك المعسكر قدم إلى القصيم سعود بن عبدالعزيز (سعود الكبير)، ومعه فئات من مُطَير وعُتَيبة، فخشي ابن رشيد أن يَنضمَّ إليه أهل القصيم، فيقوم الجميع بمهاجمته، فانسحب من مكانه، مُتَّجهًا شمالًا أواخر شوال سنة ١٣٣٣هـ. وقام سعود بهجمات ناجحة على فئات من شَمَّر[4].

---

(١) القاضي، ص٤٩؛ الذكير، نسخة خاصة، ص١١٠.

(٢) كان أمير بريدة من قِبَل الملك عبدالعزيز حينذاك فهد بن مُعمَّر.

(٣) القاضي، ص٥١.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها؛ الذكير، نسخة خاصة، ص١١٠.

وقد شهد عام ١٣٣٤هـ غارات لابن الملك عبدالعزيز، الأمير تركي، ومعه أتباع بينهم فئة من مُطَير، على مواضع قريبة من حائل. وكان الأمير سعود بن رشيد حينذاك قد خرج من قاعدة إمارته غازيًا الأطراف الشمالية الشرقية من جزيرة العرب. فأسرع عائدًا إلى جبل شَمَّر للدفاع عن بلاده[١].

أما عام ١٣٣٥هـ فشهدت بدايته تغلغل نفوذ سعود بن سَبْهان في إمارة جبل شَمَّر لدرجة أنه بدأ يفكر في عزل الأمير سعود بن رشيد نفسه عن الإمارة. لكن هذا الأمير اكتشف أمره، فاضطره إلى الفرار إلى العراق، حيث بقي هناك حتى قتل عام ١٣٣٩هـ. وقد حَلَّ مَحلَّه في مساعدة أمير الجبل عقاب بن عِجْل[٢].

وفي أواخر عام ١٣٣٦هـ قام الملك عبدالعزيز بغارة على أطراف جبل شَمَّر. فخرج الأمير سعود بن رشيد لمدافعته[٣]. وفي بداية العام التالي أدرك هذا الأمير أن موقفه قد بات ضعيفًا لعدة أسباب. منها أن الدولة العثمانية التي كانت إلى جانبه قد هُزِمت في الحرب. ومنها أن فئات من شمَّر اعتنقت حركة الإخوان المشهورة، فأصبح ولاؤها السياسي للملك عبدالعزيز. ولذا طلب الصلح من الملك، فاستجاب له[٤].

٢- قضية العُجْمان:

سبقت الإشارة إلى ما حدث من قبيلة العُجْمان في معركة جُراب. وكان ذلك مما أغضب الملك عبدالعزيز عليها. لكن تعامله معها ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالعلاقة مع الكويت. فقد تَوجَّهت تلك القبيلة بعد المعركة المذكورة إلى شمال

---

(١) المصدر الأول نفسه، ص٥٢.

(٢) موزل، ص٢٥٠؛ الدخيل، ص ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٣) القاضي، ص٥٤؛ الذكير، نسخة خاصة، ص١٢٠.

(٤) المصدر الأول نفسه، الصفحة ذاتها.

شرقي الجزيرة العربية، وأخذت تعتدي على قوافل التجارة وبعض العشائر هناك. وكان من تلك القوافل والعشائر ما هو تابع لأمير الكويت وأهلها[1]. فاستنجد ذلك الأمير بالملك عبدالعزيز لردِّ ما أخذته من أتباعه.

وتَردَّد الملك في بداية الأمر في اتخاذ إجراء ضد قبيلة العُجْمان لعدم ثقته بصدق موقف من استنجد به عند الحاجة. ثم استجاب له بعد أن عاهده على أن يَمدَّه برجال وسلاح[2]، وألَّا يستقبل تلك القبيلة إن لجأت إلى الكويت، وألَّا يَتوسَّط بينه وبينها في الصلح مستقبلًا[4]. على أن زعماءها لم ينتظروا، فقد تَوجَّهوا بقبيلتهم إلى الأحساء ذاتها، وناصرهم من ناصرهم من أحفاد الإمام سعود بن فيصل المناوئين للملك عبدالعزيز حينذاك[3]. وكان هذا وذاك من بين الأسباب التي دفعت الملك عبدالعزيز إلى التَّوجه إلى الأحساء لمحاربتهم.

ووصل إلى هناك في شهر شعبان، سنة ١٣٣٣هـ، ومعه مئات من الحاضرة، وانضمَّ إليه آخرون من حاضرة تلك المنطقة وباديتها، ثم انطلق بهؤلاء لمهاجمة العُجْمان ليلًا في كَنْزان. لكنهم كانوا على علم بِتحرُّكه، فأوقدوا النيران لإبهام المهاجمين بأنهم مقيمون، وانسحبوا من خيامهم إلى مكامن تحيط بها. وانطلى الأمر على المهاجمين، فراحوا يطلقون نيران بنادقهم على ما كانوا يرون أمامهم من خيام وأشجار ظَنًّا منهم أن تلك النيران موجهة إلى خصومهم. ولما كادت ذخائرهم تنفد انقضَّ عليهم العُجْمان من كل اتجاه، فَحَلَّت بهم الهزيمة، وجُرح الملك عبدالعزيز، وقُتِل أخوه سعد. وكان ذلك في ١٣٣٣/٨/١٥هـ[4] (١٩١٥/٦/٢٧م). وانسحب المنهزمون إلى بلدة الهفوف قاعدة المنطقة.

---

(١) الذكير، نسخة خاصة، ص١٠٩؛ ابن هذلول، ص١٠٥.

(٢) الريحاني، ص٢٢٥؛ خزعل، ج٢، ص٢١٧.

(٣) القاضي، ص٤٩؛ الذكير، نسخة خاصة، ص١٠٨.

(٤) القاضي، ص٤٩؛ آل عبدالقادر، ج١، ص٢١٤.

فَتعقَّبهم العُجْمان، وفرضوا حصارًا على تلك البلدة وقراها. وظَلَّ الوضع كذلك ثلاثة أشهر تقريبًا حتى وصلت إلى الملك قوة من نجد بقيادة أخيه محمد. ثم وصلت إليه نجدة أخرى من الكويت بقيادة سالم الصباح. وبات موقف العُجْمان يضعف تَدريجيًّا حتى قَرَّروا الانسحاب من مواقعهم، وتَوجَّه أكثرهم شمالًا. فخرج الملك عبدالعزيز في إثرهم، وقسم أتباعه إلى فرقتين: إحداهما بقيادته تهاجمهم، والأخرى بقيادة أخيه محمد وسالم الصباح تطاردهم إذا انهزموا. ولما فعلت المدافع التي معه فعلها انهزم العجمان، فتبعهم محمد وسالم. لكن سالمًا تَوقَّف عن مهاجمتهم لأسباب تختلف المصادر في تحديدها[1]. وقد أثار ما فعله سالم غضب الملك عبدالعزيز، ثم اشتد غضبه حينما قبل مبارك التجاء العُجْمان إلى الكويت. على أن الأجل وافى مباركًا في شهر المُحرَّم سنة ١٣٣٤هـ[2]. فحاول خليفته جابر أن يُحسِّن علاقته بالملك عبدالعزيز، وطلب من العُجْمان النزوح عن بلاده، فَتوجَّه أكثرهم شمالًا، ونزلوا في صفوان بإذن من أمير الزبير. وتَعهَّدوا -بضمانة بريطانية كويتية مشتركة- ألَّا يقوموا بأعمال عدائية ضد الملك عبدالعزيز. لكن وفاة جابر بعد عام وشهرين تقريبًا من تَولِّيه الحكم جاءت بأخيه سالم إلى ذلك الحكم. ومنذ بدأ عهد هذا الأخير بدأ يتلاشى ما تَعهَّد به العُجْمان، وأخذوا يَشنُّون غارات على أتباع الملك عبدالعزيز عبر الأراضي الكويتية. لكن تصميم الملك عبدالعزيز جعل بريطانيا تضغط على أمير الكويت بعدم التعاون معهم، فاضطروا في نهاية الأمر إلى تغيير موقفهم،

---

(١) يذكر خزعل (ج٢، ص٢١٨) أن ذلك عائد إلى تَسلُّمه رسالة من أحد قادة القبيلة بعثها أبوه مبارك إلى ذلك القائد، يأمره فيها ألَّا يشترك في قتال العُجْمان. ويذكر الوكيل السياسي البريطاني في الكويت، نقلًا عن خالد السعدون، **العلاقات بين نجد والكويت**، ص١٧٦ - أن زعيمين من زعماء القبيلة وصلا إلى سالم وعرضا عليه السلام. فأخبرهما أن ذلك عائد إلى أبيه أو الملك عبدالعزيز، فسار أحدهما إلى أبيه، واصطلح معه.

(٢) المصدر الأخير نفسه، ص١٧٨.

وتَعهَّدوا بالانقياد للملك عبدالعزيز، فعفا عنهم، وعادوا إلى مواطنهم السابقة في منطقة الأحساء، والتحق بعضهم بحركة الإخوان. وذلك سنة ١٣٣٧هـ[١].

٣- الملك عبدالعزيز والملك حسين:

بدأ شريف مكة، الحسين بن علي، نشاطًا واسعًا لتقوية وضعه العسكري عام ١٣٣٣هـ. ومن ذلك أنه فتح الباب أمام من يريدون أن ينخرطوا في سلك جيشه. فالتحق به عدد كبير من أهل نجد[٢]. وفي العام التالي اشتد الخلاف بينه وبين حكومة الاتحاد والترقِّي التركية. وكانت تلك الحكومة قد عمدت إلى تتريك ولاياتها العربية؛ إدارة وتعليمًا، مما زاد من الشعور القومي العربي ضدها. وحاولت أن تَطبِّق على ولاية الحجاز ما تُطبِّقه على الولايات الأخرى من حيث تعميق السياسة المركزية[٣]. وبذلك أصبح الحسين بن علي في صف واحد مع الوطنيين القوميين في بلاد العرب الأخرى؛ خاصة العراق والشام[٤].

وكانت بريطانيا في تلك المرحلة تواجه عقبات عسكرية من تركيا وألمانيا، مما دفعها إلى التحالف مع الحسين بن علي ومن يقف معه؛ أملًا في التَّغلُّب على تلك العقبات. وبذلك التقت مصالحها مع مصالحه، واتَّفقا على العمل معًا. وتَمخَّض عن ذلك ما عُرِف تاريخيًّا بالثورة العربية، التي أطلق الحسين رصاصتها الأولى من مَقرِّه في مكة يوم التاسع من شعبان سنة ١٣٣٤هـ (١٩١٦/٦/١٠م[٥].

---

(١) المصدر نفسه، ص ص ١٩٧ - ٢٠٧.

(٢) يذكر القاضي (ص٥١) أنه التحق بجيش الشريف من أهل القصيم وحدهم حوالي ٥٠٠ رجل.

(٣) وهيم، ص٣٧.

(٤) كانت إجراءات جمال باشا، والي دمشق، ضد أولئك الوطنيين من أقسى ما قام به الولاة الأتراك.

(٥) السباعي، ج٢، ص٢٢٤. وقد أصبحت الحجاز مملكة في أول المحرَّم سنة ١٣٣٥هـ، وهيم، ص٦٢.

وكان لعبدالله بن الحسين أثر كبير في إقناع والده للقيام بالثورة متعاونًا مع بريطانيا. وليس المجال، هنا مجال حديث عما دار بين هذه الدولة الماكرة والحسين من محادثات ووعود واتفاقيات، مما فَصَّلته كثير من المصادر والبحوث. لكن من الممكن إيجاز ما تَمَّ من خطوات على أرض الحجاز ذاتها.

طلب الأتراك من الحسين إرسال مُتطوِّعين من الحجاز، فانتهز الفرصة وأوعز إلى عدد من هؤلاء أن يبرقوا إلى جمال باشا في دمشق، بأنهم يأملون أن يكونوا تحت قيادة فيصل بن الحسين، الذي كان لدى ذلك الوالي حينذاك. فانطلت عليه الحيلة، وأذن لفيصل بالتَّوجه إلى الحجاز. ولما وصل إلى المدينة المنورة اجتمع بأخيه علي، الذي كان عند قائد الجيش التركي فيها، فخري باشا. واستأذناه في الخروج منها لجمع المُتطوِّعين. خُدِع بكلامهما، فأَمدَّهما بمال وذخيرة، وجمعا المُتطوِّعين للثورة ضد العثمانيين لا للقتال معهم. وبعد إعلان الحسين الثورة في مكة استسلمت حامية جدة لقواته المدعومة ببوارج بريطانية. ثم تلتها حامية مكة، ثم حامية الطائف. ورَدًّا على ذلك عَيَّن العثمانيون على حيدر، الذي كان حينذاك في الآستانة، شريفًا لمكة. فَتَوجَّه من هناك إلى دمشق حيث جَهَّزه جمال باشا بسرعة إلى المدينة المنورة.

وكان فخري باشا قد حَقَّق بعض الانتصارات على الثائرين حول المدينة. وقد استمال الشريف علي حيدر بعض القبائل هناك. لكن انهيار المقاومة العثمانية في الشام أضعف موقف فخري باشا رغم ما أبداه من صمود ونشاط. وقاسى أهل المدينة حصارًا شديدًا، فَشجَّعهم فخري باشا على الخروج منها. ولَعلَّ من أسباب ذلك خوفه من انقلابهم عليه، ورغبته في الحفاظ على ما فيها من مؤن لقواته[1]. ولما أعلنت هدنة الحرب العالمية أوائل صفر من عام ١٣٣٧هـ،

(١) القاضي، ص٥٣.

المُتضمِّنة جلاء العثمانيين عن بلاد العرب أمرت الحكومة العثمانية فخري بالتسليم، لكنه لم يمتثل. بل ظَلَّ يقاوم حتى رأى فرق جيشه تستسلم للجيوش المحاصرة، فاضطر إلى الاستسلام في الخامس من ربيع الأول سنة ١٣٣٧هـ[١].

ولقد شهد عام ١٣٣٣هـ عدم نجاح الملك عبدالعزيز في جُراب، ثم هزيمته في كَنْزان[٢]. وكان هذا وذاك من بين العوامل التي دفعته إلى عقد معاهدة دارين المشهورة مع بريطانيا في صفر من العام التالي. ومع أن بعض بنود هذه المعاهدة تمنح تلك الدولة نوعًا من النفوذ عليه، وتَحدُّ من حركاته ضد بلدان الخليج المرتبطة معها بمعاهدة حماية، فإن في بعض بنودها الأخرى اعترافًا بسيادته على ما تحت يده من مناطق وتَعهُّدًا بحمايته ضد أَيِّ عدوان خارجي ضِدَّه[٣].

ولما قام الحسين بن علي بثورته وقف الملك عبدالعزيز منه موقفًا حذرًا، لكنه أقرب ما يكون إلى الحياد؛ انسجامًا مع الظروف التي كان يَمرُّ بها. كان يخشى أن تصبح تلك الثورة وسيلة يتقوَّى بها الحسين مستقبلًا، فَيهدِّد بلاده وحكمه. ومن هنا فاتح المسؤولين البريطانيين في الخليج بشأنها. وقد حاول هؤلاء طمأنته بأنه لن يحصل عليه أَيُّ اعتداء. فتبادل الرسائل الوُدِّية والهدايا مع الحسين، وسمح لأتباعه بالانخراط في جنديته[٤]. لكن الحسين ما لبث أن أعلن نفسه ملكًا للبلاد العربية كلها. وكان هذا مما زاد من مخاوف الملك عبدالعزيز وغضبه. وقد قام مُمثِّل بريطانيا في الخليج بدعوته إلى الكويت،

---

(١) السباعي، ص ص ٢٢٠ - ٢٣١.

(٢) انظر ص ص ١٤٦ - ١٤٧ و١٥١ - ١٥٢.

(٣) انظر عن هذه المعاهدة الزركلي، ج١، ص٢٨٥؛ ترولر، ص ص ٨٣ - ٨٩.

(٤) القاضي، ص ص ٥١ و٥٣؛ الريحاني، ص٢٣٥.

وأسفر الاجتماع به عن أمور منها تخصيص مساعدة مالية شهرية له، وإمداده بشيء من الأسلحة، وضمان عدم تَدخُّل الحسين في شؤونه الخاصة أو التحدُّث باسم العرب باعتباره ملكًا عليهم[1]، على أَلَّا يقوم الملك عبدالعزيز بأَيِّ نشاط ضده[2]. ولَعلَّ من أسباب تجاوب بريطانيا النِّسْبِيّ مع الملك عبدالعزيز خشيتها من أن يفتح جبهة ضد الحسين، الذي كانت حينذاك تعتمد عليه كثيرًا ضد العثمانيين في جزيرة العرب والشام والعراق.

ومَرَّ عام ١٣٣٥هـ بهدوء نِسْبي في العلاقات بين عبدالعزيز والحسين. واستمرت الرسائل الوُدِّية بين الطرفين. بل إن الأَوَّل أبدى استعداده للمساهمة في القتال إلى جانب الثاني لولا المشكلات الداخلية التي كانت تواجهه. وفي طليعتها مشكلته مع آل رشيد[3]. وخُتِم ذلك العام بحج عشرات الآلاف من النجديين بقيادة محمد بن عبدالرحمن، أخي الملك عبدالعزيز، فلقي في مكة حفاوة واهتمامًا كبيرين[4]. لكن نوعًا من التَّوتُّر طرأ على تلك العلاقات في العام التالي. وكان من أسبابه انضمام فئات من القبائل الموجودة على الحدود ما بين نجد والحجاز إلى حركة الإخوان. على أن الذي أوقد شرارة الخلاف بين الملكين العربيين إظهار كثير من سكان تُرَبة والخُرَمة التابعتين إداريًّا حينذاك للحسين حماسهم للمبادئ التي قام عليها الحكم السعودي؛ وهو أمر تعود جذوره إلى عهد الدولة السعودية الأولى. وفي طليعة هؤلاء أمير الخُرمة الشريف خالد بن لؤي،

---

(١) وهيم، ص٢٨٨.

(٢) الزركلي، ج١، ص٣١٦.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٣١١.

(٤) الذكير، نسخة خاصة، ص١١٦، العبيِّد، ص١٩٦. وقد ذكر ابن هذلول (ص١١٣) أن ذلك الحج حدث سنة ١٣٣٦هـ. ويبدو أن ذلك غير صحيح لأن النزاع بين عبدالعزيز والحسين حول تربة والخرمة كان مشتعلًا آخر تلك السنة.

الذي أَدَّت أسباب مختلفة إلى خروجه عن طاعة الحسين سنة ١٣٣٦هـ[١]. وحاول الحسين إخضاعه بالقوة، ووَجَّه إليه عِدَّة حملات؛ منها ما كان بقيادة الشريف شاكر بن زيد. لكن خالدًا وأتباعه ومن انضمَّ إليهم من الإخوان؛ خاصة من هجرة الغُطْغُط، ألحقوا هزائم ساحقة بتلك الحملات. وكانت خاتمة المعارك بين الطرفين حول الواحتين معركة تُرَبة المشهورة، التي حدثت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وستأتي تفصيلاتها إن شاء الله.

٤- قيام حركة الإخوان:

من الثابت أن كلمة «الإخوان» كانت تطلق على طلاب العلم والمرتبطين بهم، أو المُتحمِّسين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، منذ عهد الشيخ محمد بن عبدالوهاب[٢]. لكنها أصبحت ذات دلالة تاريخية مرتبطة بحركة

---

(١) يذكر العبيِّد (ص ص ١٨٤ و١٩٦) -وكان مقيمًا عند خالد حينذاك- أن ذلك الشريف قدم مع وفد من بلدته إلى الملك عبدالعزيز في الأحساء عام ١٣٣٤هـ، فأكرمه الملك. وغضب عليه الحسين لذهابه، فأفهمه أنه كان يقصد تحسين العلاقة مع عبدالعزيز لتتاح الفرصة لباديته كي ترعى في أراضي نجد الواسعة. ومنذ تلك الحادثة بدأ النفور بين خالد والحسين. وفي العام التالي كان خالد مع عبدالله بن الحسين في حصار المدينة المنورة، وكان الشريف شاكر بن زيد يسخر من تديُّن خالد، فاستأذن خالد عبدالله ليزور أهله في الخُرْمة، فأذن له. وبوصوله إلى بلدته أظهر الخلاف مع الحسين. ومن المصادر ما يعزو رجوع خالد إلى بلدته إلى شجار حدث بينه وبين فاجر بن شليويح العتيبي، وهما في ذلك الحصار، فلطم فاجر خالدًا، لكن عبدالله بن الحسين لم يعاقب فاجرًا العقاب الذي أمَّله خالد، فاستأذن في العودة إلى بلاده، فأذن له. ومن تلك المصادر ابن هذلول، ص١١٤. ويبدو أن كلًّا من سخرية شاكر بخالد والشجار مع فاجر قد حدثا، فاجتمعا مع أسباب أخرى، من أبرزها التوجه العقدي لتزيد الخلاف بين خالد والحسين. ومما هو جدير بالذكر أن حملة وجهت إلى خالد بقيادة شاكر، وأن فاجر بن شليويح قد هاجم أهل إبل من سبيع في الخرمة آخر يوم من ذي القعدة عام ١٣٣٦هـ، فأصابته رصاصة ممن هاجمهم، وأردته قتيلًا. العبيِّد، ص٢٠٤.

(٢) حسين بن غنَّام، **روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام**، القاهرة، ١٣٦٨هـ، ج١، ص١٧١.

البادية الاستيطانية التي تَمَّت على نطاق واسع في عهد الملك عبدالعزيز. ولقد كتب عن هذه الحركة كثير من المؤرخين والباحثين، نَشأةً، وتَطوُّرًا، ثم مجابهة مع الملك[1].

والمتأمِّل في سيرة الملك عبدالعزيز يَتَّضح له ما حباه الله به من صفات قيادية. ومن هذه الصفات مقدرته على استنتاج العبر من التاريخ، وما كان يَمرُّ به من تجارب. لقد أدرك أن من أسباب نجاح أسلافه من آل سعود مناصرتهم للعقيدة الإسلامية الصافية، وتطبيقهم للشريعة الغَرَّاء. وأدرك أيضًا، أن العمود الفقري لقوة أولئك الأسلاف في مواجهاتهم مع خصومهم كان الحاضرة من السكان، وأن القبائل الرحَّل- بسبب ما توارثته من تقاليد وما تفتقر إليه من معرفة بالدين حينذاك- كانت تقف بجانب المنتصر في أوقات انتصاره، لكن غالبيتها سرعان ما تَغيَّر موقفها إذا بدت بوادر ضعفه. ولقد زادته تجاربه الخاصة، خلال السنوات العشر الأولى من مسيرة توحيده للبلاد، اقتناعًا بأن البدو الرحَّل ليس من السهل صرفهم عن أمور درجوا عليها من مئات السنين؛ كتبادل الغزوات، ومهاجمة القوافل التجارية، وليس من الممكن أن يعتمد عليهم في المعارك كما يعتمد على الحاضرة. بل إن من الصعب السيطرة عليهم أمنيًّا. ومن ثَمَّ جاءت فكرته الرائدة الذكية للانطلاق بما عُرِف تاريخيًّا بحركة الإخوان[2].

لقد بدأت تلك الانطلاق ببعث الدعاة إلى القبائل يرشدون زعماءها وأفرادها إلى دين الله القويم، ويحثونهم على هجر ما كانوا عليه من أمور لا

---

(١) من الكتب الجيِّدة عنها كتاب جون حبيب؛ وترجمة عنوانه: **محاربو ابن سعود في سبيل الإسلام**، لايدن، ١٩٧٨م.

(٢) ابن ناصر، ج١، ص٨٣.

تتفق مع أحكامه، والاستيطان في أمكنة مُعيَّنة لتسهل عليهم معرفة تلك الأحكام وتطبيقها. وبدأت تلك الجهود تؤتي ثمارها عندما قدمت إلى حَرَّمة جماعة من قبيلة حَرْب من أعيانهم سعد بن مثيب، ومعهم أفراد من قبيلة مُطَير للاستقرار ومعرفة أمور دينهم؛ وذلك عام ١٣٣٠هـ. ثم انتقلوا في العام نفسه إلى مورد الأرطاوية، وبدأوا يبنون مساكن لهم هناك. وأطلقوا على مستوطنتهم الجديدة اسم «هجرة»؛ إشارة إلى هجرهم نمط حياتهم الأول، والانتقال إلى نمط جديد يعتمد على أسس دينية. وهكذا نشأت الهجرة الأولى التي أصبحت، فيما بعد، مركزًا لزعيم قبيلة مُطَير فيصل الدويش. ثم توالى إنشاء الهجر في مواطن القبائل المختلفة. وكان من أعظمها شأنًا هجرة الغُطْغُط مقر زعيم أحد فرعي قبيلة عتيبة الكبيرين: سلطان بن بجاد. ولقد شَجَّع الملك عبدالعزيز أولئك الذين رغبوا في الاستقرار ببعض المساعدات؛ خاصة بناء المساجد، وتأمين الكتب الدينية، وإرسال الدعاة والمُعلِّمين. وأصبح أولئك المستقرون الجدد والمنضمُّون إلى تلك الحركة يتخذون اسم «الإخوان»؛ إشارة إلى أن ما أصبح يربط بينهم ليس رباط القبيلة، بل رباط الأُخوَّة الدينية المقتبس من قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وقوله: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وبلغ تَحمُّسهم لحياتهم الجديدة درجة جعلتهم يعارضون من لم يَنضمَّ إلى الحركة وإن كان من قبائلهم؛ ناهيك عن أن يكون من قبائل أخرى. على أنه من المؤكد- شأن كثير من الحركات- أن بعضًا ممن انضمُّوا إلى حركة الإخوان لم يكن انضمامهم إليها نابعًا من اقتناع ديني؛ بل نتيجة خوف من بأس أولئك المُنضمِّين ومن يُؤيِّدونهم، أو رغبة في مشاركتهم الغنائم التي يكسبونها. وكان من فوائد الحركة لمسيرة توحيد البلاد ما يأتي:

١- القضاء، بدرجة كبيرة، على اعتداءات بعض القبائل على البعض الآخر، واعتداءاتها على الآخرين.

٢- تكوين وحدات عسكرية تجمع بين التجربة القتالية والحماس الديني، مما جعلها تستبسل في سبيل الهدف الذي اقتنعت به، والذي كانت تطمح إليه الحكومة المركزية. ولعلَّ جهود الإخوان بين سنتي ١٣٣٦ و١٣٤٤هـ أكبر دليل على ذلك.

٣- التخفيف من حِدَّة الولاء القبلي لزعماء القبائل لحساب الزعامة الدينية المتمثلة في الحكومة المركزية.

٤- تسهيل مَهمَّة الحكومة المركزية في الحفاظ على الأمن. فالتعامل مع من ارتبط بالأرض؛ سكنًا وزراعة، أيسر من التعامل مع من ينتقل من وَادٍ إلى وَادٍ، ومن موضعٍ إلى آخر.

ومع أن الآثار الإيجابية لحركة الإخوان لم تظهر بشكل فَعَّال، إلا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، فإن تكوين تلك الحركة خلال هذه الحرب كان من أعظم الأحداث في تاريخ البلاد[1].

*****

(١) من الأمور التي لا بد من الإشارة إليها الوباء الذي حدث خلال الشهور الأولى من عام ١٣٣٧هـ. وقد توفي بسببه آلاف من النجديين، بينهم الأمير تركي بن عبدالعزيز، ويسمَّى السكان المحلِّيون ذلك العام «سنة الرحمة»؛ تفاؤلًا منهم في أن يرحم الله من مات نتيجة ذلك الوباء.